الفصل الثاني

استعادة الأحداث الماضية والتأمل فيها

عندما يصبح هذا الكتاب بين يدي القارئ، سأكون قد وصلت إلى الحد الطبيعي من عمر الإنسان لكن دون معالم أو مؤثرات تدل على الإرهاق والتعب. علاوة على ذلك، وكما كانت الحال مع سيدنا موسى وأتباعه، سأكون قد أتممت فترة إقامتي مع مجاهل البراري لمدة أربعين عاماً [١] متجاوزاً بحوالي عقد أو أكثر سجل السير ريدر بولارد الذي يروق لي أن أطلق عليه اسم "يوحنا المعمدان"[٢]. وكما تذوق هو فقد تذوقت أنا أيضا حلاوة الصحراء وبتلذذ واستمتاع. لكن جراد ذلك الصحراء لا يزال يعج بأعداده الكبيرة ولا يزال البدو الجياع يأكلونه على الرغم من كافة جهود العلم الحديث الرامية للحد من تكاثر الجراد أو إقناع الناس بعدم أكله. وبعد أن أكلت واحدة منها -وكانت تلك تجربتي الوحيدة منذ أربعين عاماً- تجدني أتجنب أكلها بكل ما أوتيت من قوة. تنبت أرض الصحراء ما هو أطعم من الجراد ومن الأمثلة على ذلك الكمأ ولحم الطرائد والغزلان علماً أن اصطياد الغزلان من على ظهر السيارات زاد من متع السفر في الصحراء العربية. إلا أن السفر بالسيارات قد قضى على وجود النعامة التي كانت في وقت من الأوقات تضع بيضها في رمال الصحراء الذهبية.

(١) يشير إلى قوله تعالى: ﴿قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ [المائدة: ٢٦].

(٢) يوحنا المعمدان: هو النبي يحيى -عليه السلام- ويشير المؤلف إلى وجه الشبه حيث إن يوحنا عاش في البراري، ثم ظهر على شاطئ الأردن.

لست مسؤولاً عن حقيقة أن من بين الأسماء التي أعطيت لي عند تعميدي في الكنيسة كان اسماً مشتقاً من حقيقة مكان مولدي في أحد البيوت الريفية على الشاطىء ويدعى القديس يوحنا في منطقة بدولا في سيلون. وعند استرجاع أحداث الماضي أجد أن ذلك الاسم يمكن أن يكون اسماً محرضاً على الاستفزاز إذا ما قورن مع عملي وعمل فوكس كلامانتيس في الأيام الماضية الخوالي. على أي حال، فإن وجه المقارنة هو شيء لافت للنظر وهو محض مصادفة، وهنا يمكنني القول وبكل صدق أنني لم أسع في حياتي كلها أن أجعل من سلوكي أنموذجاً مشابهاً لأنموذج المنصرين المسيحيين. ففي أيام شبابي وخاصة عندما كنت أكثر حساسية للهزء والسخرية مما أنا عليه الآن عملت على إخفاء حقيقة أنني أحمل مثل ذلك الاسم. أخفيته خاصة عن رفاقي في المدرسة، ويشهد على ذلك سجلي الدراسي في مدينة وستمنستر وكذلك في المدارس الخاصة التي درست بها. ولم أكشف عن ذلك الاسم إلا عندما ذهبت إلى كامبردج قبل منتصف قرن من الزمن. حجبني تأثير مقعد الدراسة في المدارس التي تعلمت فيها عن العقيدة التي تعمدت بها ولقنها لي القساوسة والتي ترعرعت في كنفها مع مرور الزمن. كان نور ذلك العلم المنارة التي استرشدت بها منذ ذلك الحين: أعني بذلك أنني كنت أتمحص كل خرافات الحضارة المعاصرة تحت ضوء العقل والمنطق، وفي النهاية دفعني ذلك النور إلى مجاهل البراري لألعب دور فوكس كالامانتيس في قضية كانت -في رأيي- تستحق أن يوعظ بها. وإذا كان وسط كل هذه الأمور ما يستدعي صدى لصوت آخر، خاصة بعد صمتي الذي دام لفترة طويلة، فأنا أنشد عالماً شكساً صعب المراس لينهج طريقة جديدة باسم جديد كان قد سمع صدى تناغم انتصاره عبر العصور الماضية ليلتقي ذلك الصدى مع مدرسة النزوع إلى

الشك، ومع المنحنى المادي لعصرنا الحاضر. بمعنى آخـر: إن أوجه التشابه هو أمر سطحي ظاهري وبالتـالي فهـو عرضي. في حين كـانت رسالة المعـمدان لإحـياء الآمال بمثابة تاج في عشية عيد ينتـهي بالصلاة والصيام وسط الأطراف المترامية في الجزيرة العـربية تجـدني أستلم تلك الرسـالة لأعشق الصحـراء منذ النظرة الأولى ولأقضي أربعين سنـة من عمري أراقب تفـتح وازدهار فكرة زرعت بذورها وسط صرخات الضـحك والاستهزاء التي كـانت تصدر من أقراني. كنت أنا شخـصياً، وليس بطل روايتي، من ذهب قرباناً لذلك التوجه، لكنني حصلت على مكافأتي. كان الرجل الذي كرمه ونستون تشرشل لكونه الصديق المخلص لبريطانيا أيام العسر والضيق قد أكد لي بأنه لن ينسى الصديق الوحيد الذي وقف إلى جانبه عندما كان في حاجة ماسة إلى الصديق. جاء تأكيده لي بالرغم من العنف الكامن فيما ملكه من أدوات التفجيـر. إن حديثه لمجلس الشورى البريطاني مـوثق إذ يقول فيه: إن الرجلين الوحيدين اللذين عرفهما وعمل معهما خلال سنوات عمره المليئة بالمشاغل لم يطلبـا منه أبـداً أي عطيـة أو هبـة. والرجل الثـاني المقـصـود هنا هو الشـيخ عبدالرحمن السبيعي وهو رجل فاضل وأحد تجار نجد الأثرياء، وإن اسمه يجب أن يبقى في الذاكرة.. أشهد أن ابن سعود لم يبخل في يوم من الأيام في تأمين المؤن وتوفير الوسـائل وتقديم الدعم المادي والمعنوي للعديد من الرحلات الاستكشـافية التي نظمتهـا لاكتشاف معـالم مملكته في الجزيرة العربية. إن نتـائج تلك الحملات موثقة وتشهد على الفضيلة الخـالدة لذلك الرجل الذي أسهم في تنفيذها على حيز الواقع، كما أنها أسهمت بدرجة كبيرة في إثراء معرفة العالم ببلد لم يكن -عندما قمت بأول حملة استكشاف لي في براري الصحراء- معروفاً عنه إلا القليل.

يمكن للقـارئ أن يسامحني بـصفتي رجـلاً كـبيراً في السن لإسهـابي في هذه

الذكريات السارة المتعلقة بصداقة فيها الكثير من الإيثار وحب الغير، والتي نسجت خيوط حياتي وفق النمط الحقيقي لتاريخ الجزيرة العربية. ليس لدي ما يمكن أن أندم عليه، علماً بأن موت مثل ذلك الملك العظيم خاصة بعد سنوات طوال من الإخلاص في خدمته، وخدمة بلاده وشعبه ليؤكد على انتهاء حقبة لم تشهد مثلها الجزيرة العربية منذ ألف عام أو أكثر. إن ذلك وحده يذكرني بأن الواحد منا ينتمي إلى الماضي أكثر من انتمائه إلى المستقبل. إن بإمكان كل واحد منا أن يتطلع إلى المستقبل. نتطلع إليه ونحن آملين أكثر من كوننا متأكدين بأن الجيل الجديد الذي لا بد أن يحمل الشعلة التي سقطت من أيدي آبائه عليه أن يبلي بلاء حسناً في عالم معاصر أكثر تعقيداً وخطورة من العالم الذي عاش فيه سلفهم.

هل صحيح أنه ليس هناك ما نندم عليه؟ إن ذلك ليس صحيحاً بالمعنى الكلي للكلمة. ربما أعني في حقيقة الأمر أنه ليس لي قضية أندم عليها كوني قد قضيت حياتي على النحو الذي أردته. لقد حققت الثروة التي تمكنني من التجوال في دروب لم يطرقها أحد من قبلي تعج بالمتعة والنشوة عند كل منعطف من منعطفاتها. علاوة على ذلك لم أشعر بقيود المهنة التي وجدت نفسي منخرطاً فيها. أقصد أنني لم أعان من الخيلاء الذي أصاب العديد من أقراني عندما وجدوا أنفسهم في مصاف آلهة الإغريق. لقد سلكت طريقاً خاصاً بي ولم أسع وراء أي مكافأة عن العمل الذي قمت به سوى المتعة الناجمة عما قمت به لخدمة الإنسانية على نطاق واسع. ومن هنا يمكنني القول دون أي تحفظ بأنني استمتعت بحياتي غاية الاستمتاع، ومع ذلك هناك ثمة مرارة.

لقد انتهى حلم اليقظة، وأصبح محفوراً في ذاكرتي على نحو يصعب محوه أو إزالته. لكن ذلك الحلم يترك فيّ أثره إحساساً بالتحرر من الوهم وإحساساً بالخوف

من شر مرتقب. لقد حدث ثمة خطأ في نهاية تلك الرؤيا وتلاشى ذلك الخطأ في خلفية فوضى معينة انبثقت منها أجيال من جماعة يأجوج ومأجوج، ومعهم سلاسل من ذهب الجزيرة العربية ليقيدوا بها البطل الذي أنهكه انتصار الفضيلة تحسباً من أن يستمر انتصار الفضيلة إلى الأبد. لقد انقضى عقد من الثروة الجامحة والتبذير ليبدد معه الجهاد الذي قام به رجل يمكن أن يقال عنه بأنه من أعظم شخصيات تاريخ الجزيرة العربية[1]، وسيظل سجله مجال اعتزاز في كافة العصور وعلى مدى كافة أيام الأجيال في الجزيرة العربية. إن المُثل التي جاهد من أجلها دون هوادة إلى أن أثقلت السنون كاهله ستُخلد وسيتم تدوينها في سجلات التاريخ؛ لأنه قام بالقسط الأعظم من الجهاد. كما أن الأجيال القادمة التي مَنَّ عليها بالأمن والرخاء الناجمين من صنيعه ستقدره حق تقدير. لا بد أن يعرب الغرب من الآن فصاعداً عن جل شكره للنعم التي يعيش بها لأناس الجزيرة العربية مقابل ما يحصل منهم من النفط المستخرج من أراضيهم. سيصل النفط الذي استخرج في عهد ابن سعود إلى الأجيال القادمة بصفته واحدة من المعجزات التي تحققت في الأيام الخوالي، لكن في وقت ستكون العلاقة التي نشأت بين الملك وبعض الإخوان قد تم تناسيها على نحو كتوم حذر.

من الصعب أن لا يشعر المرء بالمرارة وهو يشاهد التبدد الطائش للتراث الذي لم يصنع إلا بفعل سيف رجل لم تكن مصادر قوته سوى إيمان قوي بمصيره وإيمان لا يتزعزع بخالقه. فإذا حدث وأن فشل في مهمته فلم يكن هناك شيء آخر ليعتمد عليه، ولم يكن لديه شيء يخسره سوى عمره. كان ابن سعود قد وصل

(١) ما أشار إليه المؤلف هنا غير دقيق، لأن المملكة العربية السعودية واصلت التطور والتوسع في مجالات التنمية المتعددة مع الاستمرار على القواعد التي أرساها - المغفور له - الملك عبدالعزيز.

ذروة منجزاته بالانتصارات الباهرة التي حققها ضد الأتراك وضد أسرة الأشراف في مكة. حقق ذلك حتى قبل أن يشعر العالم بوجوده.

جاءت عائدات الحجيج وفيما بعد جاءت ثروة آبار النفط المستخرجة من أراضي المملكة العربية السعودية بمثابة مكافأة واختبار لفضائله. لكن ياخسارة: كان ذلك اختباراً قاسياً للجانب المادي في الفلسفة العربية التي تحولت لفترة معينة إلى شيء شبيه بالمثالية، والسر في ذلك يعود للتقشف، وظروف العيش في الأراضي الصحراوية. يمكنني على الأقل أن أدعي بأنني -وحتى في ذروة التعصب - تنبأت باحتمال حدوث مثل هذا الانحدار أو الانحراف. ذكرت في مواضع معينة من كتابي «الجزيرة العربية في أيام الوهابيين» -وهو كتاب يسجل أحداث رحلاتي في عام ١٩١٨م- أن العربي -وحتى في أيام التقشف والتعصب- ميَّالٌ للثياب المبهرجة والتلذذ بوسائل الرفاهية التي حرمهم منها فقرهم الشديد. وقلت أيضاً: إن على المرء أن يراقب تأثير التواصل مع وسائل الرفاهية والحضارة عند عرب بلاد الشام ليدرك أن بساطة العيش عند عرب الجزيرة العربية ما هي إلا وهم ولا بد من أن تتلاشى بفعل وسائل الرفاهية الحديثة القادمة نحوهم بالفعل حتى ولو تأخرت إلى حين. والجدير بالذكر أن بساطة العيش كانت بمثابة الصخرة التي أرست الحركة الإصلاحية عليها أسسها. لكن السلطة السعودية اختارت بطوع إرادتها أن تواجه عدوها الذي كان أكثر مكراً من القوة التركية الضاربة آنذاك. وها هي نجد وللمرة الأولى على اتصال مباشر مع العالم، وهذا التواصل ليس محصوراً في الأعمال التجارية فحسب بل يتناول صعيد المجال السياسي. تمكن عبد العزيز بن سعود ومن خلفه في الحكم من بعده في توجيه سفينتهم بأمان بعيداً عن الصخور والمخاطر المستترة في عالم السياسة. كما استطاعوا أن يصمدوا مع طاقمها غير المدرب في وجه المغريات التي تتحدى الانضباط الذي تميزت به الحركة الإصلاحية

في أوائل عهدها. وعليه فإن المجال سيكون مفتوحاً أمام إمبراطورية عربية لتحل محل الإمبراطورية التركية التي كانت لفترة قريبة في صدارة المد الإسلامي القوي.

في الواقع لم يبق من ذلك الحلم سوى ذكر ما كان يحدث لولا أن رفاهية العيش سارعت في حل عرى الارتباط مع منهج الانضباط السلوكي الذي كان متبعاً في الماضي، والذي جرف معه المثل والمبادئ المتوخاة في التوجه الديني المتشدد الذي جعل للفضيلة مكانة ضرورية، كما رسخ عقيدته ومبادئه الروحية في عالم كانت تتعاظم فيه القيم المادية والتطور الشائن الشنيع للوسائل الميكانيكية المستخدمة من أجل السلم والحرب. ويجب الاعتراف بكل نزاهة بأن العنب كان حصرماً وذلك لسبب بسيط هو أنه ما إن وصل التعصب الديني ذروة انتصاره المادي حتى بدأت أسباب المتعة عند الغرب في تقويض الأسس التقليدية المتبعة عند السعوديين المتصرين. هذا؛ وحدث الشيء نفسه حتى في ذروة الدين الإسلامي نفسه. أما في العهد السعودي فتم توخي الحرص في منع الملذات الدنيوية تماماً، كما يتوخى الحرص والخوف في خطوات عند مراقبة طفل يتوجه للسباحة في مياه البحر الباردة.

في الواقع كان الملك العظيم الذي رفع راية الجهاد ضد أعداء الله يشجع ويوجه ذلك المنع. كان الوضع الذي واجهه وضعاً لافتاً للنظر. وكانت كافة المغريات الشيطانية باستثناء الخمر - إذ كان محظورا ولا يزال كذلك - تتصارع مع التيار الديني لكنها كانت -وبشكل نسبي-، حديثة الظهور. لم يكن العالم يعرف أياً منها في زمن نزول القرآن، لكن الله بحكمته علم خلقه بأن تلك الأمور سيتم تداولها بين الناس بصفتها نتيجة لمكائد الكفار. وفي إشارة ضمنية ستكون محظورة عند نزولها على المجتمعات، لكن لم يكن لدى السعوديين حتى في فترات غليانهم

الديني أدنى ارتياب أو خوف من إمكانية دخول البنادق الرشاشة والمجهر والاختراعات المشابهة لها إلى مجتمعاتهم. وفي فترة من الفترات كانت القهوة -التي دخلت الجزيرة العربية بعد الحرب العالمية الثانية وبعد أن تم اكتشافها بحوالي تسعة قرون من مولد الإسلام- قد وضعت على لائحة المواد المشبوهة نظراً لمادة الكافيين الموجودة فيها. لكنني فشلت في إيجاد أي دليل قاطع على أنها كانت ممنوعة في أي فترة من فترات الحركة الإصلاحية كما ادعى بعض الكتاب. أما السجائر فكانت ممنوعة منذ عهد محمد بن عبد الوهاب نفسه ولكن بعد ضم الحجاز وإذعاناً أو مراعاة لحساسية ومشاعر رعاياه الجدد قبل ابن سعود بأن يعيد النظر في تلك المسألة، وظل السعوديون يحظرون تدخين السجائر.

أصبح الآن الملك ورعاياه المخلصون وجهاً لوجه أمام مشكلة الهاتف إلا أنه أرجأ أمر النظر فيها بعد جدل طويل نظراً لفائدة الهاتف لأولئك الرجال المخلصين له، إذ كان من الضروري لهم استخدام الهاتف للتحدث مع أصدقائهم في المناطق البعيدة. وكانوا عند الضرورة يستمعون للقرآن وهو يقرأ من قبل شخص بعيد عنهم. وفي أعقاب مشكلة الهاتف تم إدراج الاتصالات اللاسلكية على قائمة الأمور المحببة دون أي معارضة نظراً لفائدتها للدولة بالدرجة الأولى وبالتالي لعامة الناس على نطاق واسع. وبالمناسبة نشير هنا إلى أن خطوط البرق لم تخلق بين السعوديين أي نوع من الريبة والشك خاصة بعد أن تعرفوا عليها للمرة الأولى في مناطق الحجاز. ومع ذلك ولسبب ما يصعب فهمه نظر السعوديون نظرة شزر إلى موضوع تمكين حشود المصلين في المساجد الرئيسة في البلاد من سماع الخطب الدينية دون مشاهدة الخطيب علماً بأن ظاهرة مكبرات الصوت أصبحت في الآونة

الأخيـرة ظاهرة شائعة، وكانت ذات فـائدة كبيـرة لكل الأطراف المعنية. توجت هذه الأمور البريئة الحساسة بموضوع جهاز الراديو الذي فرض نفسه بالتدريج بصفته وسيلة لسماع أخبار الدول الأخرى. وبعد أن أصبح جهاز الراديو ظاهرة شاملة تم إنشاء محطات إذاعية تربط مختلف أمـاكن الحج الرئيسة مع المسجد الحرام في مكة علماً بأن الحكومة كانت قبل ذلك تشغل محطة بث إذاعي من جدة.

تم الآن التخلص كلية من الشكوك التي سادت في عام ١٩٢٧م، كما تم تهدئة جَيَـشَان الصدور بفـعل الموسيقى التي كـانت تصل إلى الناس من بلدان مخـتلفة باستـثناء بعض الامتعـاضات التي كانت تعلو فـي نفوس بعض المتحـمسين للنظام القديم. هذا وبدأ رجـال الجيش السعـودي الجديد يعربون عن قناعـتهم بأن الجنود يتـدربون ويقـاتلون بشكل أفـضل إذا سمـعـوا وتدربوا على إيقـاع فرق الجـيش الموسيقية. وعليه تم نظم نشيد وطني خاص بالمملكة العربية السعودية لكن كلمات ذلك النشيـد حسب معرفـتي غير مدونـة في السجلات التاريخـية، كما أن نغـمة وإيقاع ذلك النشيـد كانت غير مـعروفة عالمياً. تم تأليف وتلحين الـنشيد الوطني السعـودي في مصر ليتم عـزفه في مناسبة الزيارة التـاريخية التي كان مـقرراً لابن سعود أن يقوم بهـا إلى مصر في عام ١٩٤٦م. أكتفي بهـذا القدر من الحديث عن موضوع الموسيقى المثير للعي.

خلق موضوع السـيارات والطائرات في ذلك الحين بعض وخزات الضـمير عند أولئك الأشخاص الذين كانوا يكرهون كل ما هـو أجنبي قاطن في الجزيرة العربية يستنشق التقشف النابع من التعـصب الديني. لكن على الرغم من المعارضة المبدئية تمكنت الطائرات والسيارات بفعل مزاياها من فرض نفسها. جاء ذلك وبدون شك ليريح الجـمال التي لم يعد لهـا حاجة في نقل الناس والمواد التـجارية الثقيلة عـبر

طرق الصحراء. كما أنه تقلص استخدام الجمال خاصة بعد الانتهاء من خط السكة الحديدية التي امتدت من سواحل الخليج العربي وحتى الرياض، والتي كان مقرراً لها أن تمتد مروراً بالقصيم والمدينة باتجاه البحر الأحمر حتى جدة ومنها إلى مكة ذلك وفقاً للمسح الهندسي الذي سبق وأن تم إعداده. امتد بي العمر لأشهد الرحلة الشاقة التي كانت تستغرق ثلاثة أسابيع من العاصمة السعودية وحتى جدة، إذ أصبحت السيارة تجتازها في ثلاثة أيام وأصبحت الطائرة تطويها في ثلاث ساعات. وأصبح القطار يقطع المسافة بين ساحل الخليج والرياض في عشر ساعات، بينما كانت الرحلة سيراً على الأقدام تستغرق عشرة أيام. مر العالم المتحضر بثورة التقدم نفسها هذه على مراحل متدرجة. لكن ريح التقدم في الجزيرة العربية هبت بكامل قوتها وأحدثت مع زخمها بعض الضرر في عاداتها الراسخة المتأصلة. وهنا نشير إلى موضوع السيارات التي يجب أن ننسب إليها أمر المبادرة في الهجوم على بعض أوجه النظام القديم، إذ كان قد فرض على مؤيديه ومناصريه نوعاً معيناً من التقشف التي كان لا بد من إدخال بعض التحسينات عليها لتحقيق الفضيلة المنشودة في الحياة الأخرى. وبالطبع كان بعض الناس يدخنون حتى في ذروة أيام التعصب الديني. ومما لا شك فيه أيضاً أنه تم اكتساب بعض العادات التي فرضت نفسها من خلال زيارة بعض الناس إلى الدول المجاورة الكافرة. إن حشود الميكانيكيين الأجانب الذين تدفقوا على البلاد في أعقاب دخول الآلة إلى المملكة وأحضروا معهم الشر إلى أطهر بقاع الأرض كان لهم تأثيرات مدمرة على أخلاق الناس[١]. جاؤوا إلى المملكة من كافة الدول الإسلامية: جاؤوا

(١) يعكس ما يصفه المؤلف هنا نظرته المحافظة جداً ومبالغته في وصف الوضع والآثار التي نتجت عن دخول الأشياء الحديثة إلى البلاد. فإلى اليوم لا تزال المملكة مجتمعاً ودولة متمسكة بمبادئها رغم التحديث القوي الذي صارت فيه.

من مصر، وفلسطين، وسوريا، ولبنان، وعدن، والسودان، والإمارات، والصومال، وحضرموت، ومن أماكن أخرى خاضعة للسيطرة الأجنبية. وجاؤوا بالمئات من الهند والشرق الأقصى، وسرعان ما وصلت أعدادهم إلى الآلاف والتحق في صفوفهم المتدربون العرب الذين كانوا ذوي قابلية للتعلم وتطوير الذات لكن بأساليب يشك في طبيعتها. حقق بعض هؤلاء الناس ثروات طائلة لكن يمكن أن ننفي عن القليل منهم تهمة الخوض في ارتكاب الإثم والخطيئة. كما تفوقت الميكانيكة المتبعة في الجزيرة العربية على الأهوال والشرور المستقاة من صناع الأمثلة اليونانية. ففي الواقع تمكنت المملكة وفي مجال واحد فقط من التعامل بشكل أكثر نجاحاً من أسلوب دول العالم الغربي مع الأنشطة التي كان يقوم بها هؤلاء البغضاء من الناس. فسارعت في إنزال أشد العقوبات على المحتالين لدرجة أن أحداثاً من ذلك النوع أصبحت نادرة، علماً بأنه على مدى السنوات الأخيرة ظهر بعض التراخي على الصعيد الرسمي فيما يتعلق بسائقي السيارات المتهورين والخطرين الذين كانوا يحصلون على رخص القيادة باستغلال طيبة اللجنة الفاحصة والتلاعب عليها. ففي إحدى الحالات تمكن طبيب ذائع الصيت من مكة من الحصول على شهرة واسعة من خلال إعلانه بالجرائد عن حاجته لدفع دية فرضتها المحكمة على سائق لقتله طفل صغير. كان المفروض أن يبقى السائق في السجن إلى أن يتم دفع الدية. وعلى الرغم من تعاظم عدد رجال شرطة المرور وإنشاء الإشارات الضوئية المرورية في العديد من الأماكن علاوة على إنشاء العديد من الطرق ذات الاتجاه الواحد فقد ازداد معدل حوادث السير.

أسفرت حادثة ذلك السائق عن مناسبة وجدت نفسي فيها وجهاً لوجه أمام غضب الملك، وظننت بأن الملك كاد أن يصفعني لو أنني كنت ضمن المجال الذي تصل إليه يده أو ضمن مجال العكاز الذي كان دائماً في يده. حدث ذلك في الرياض في عام ١٩٣٠م عندما وصل الموضوع إلى حد الفضيحة بحيث اشتمل أيضاً على موضوع سرقة كميات بسيطة من البنزين ومن قطع الغيار، وكانت تلك السرقات تتم على نطاق كبير. كان الملك قد طلب مني أن أقوم بمهمة محاربة الفساد ووافقت على القيام بذلك شريطة أن أتصرف دون قيود ووفق ما أراه مناسباً. وعليه أشرفت على كافة المخازن والورش الخاصة بالملك، وقمت بجرد وتصنيف محتوياتها، واحتفظت بمفاتيح مستودعاتها، وباشرت في استجواب كافة السائقين الذين زاد عددهم عن المئة، ووجدت كما توقعت أن معظمهم لم يدفع ما استحق عليه من مبالغ لمدة تتراوح ما بين خمسة إلى ستة أشهر، واتضح أنهم كانوا يسرقون ويبيعون: قطع الغيار، والبنزين، وأشياء كمالية أخرى. وعندها أصررت على أن يدفعوا كافة ما يترتب عليهم من مبالغ دون أي تأخير، وقمت بإعداد ترتيبات تتعلق بمستقبل العمل في المخازن. لكن حدث وأن جاء موعد العطل السنوية الاعتيادية وكنت في وقتها في منطقة الخرج التي تبعد ستين ميلاً عن الرياض وذلك لقضاء فترة الأعياد مع عبد الله وهو شقيق الملك. وما إن خرجت في ذلك المشوار حتى طلب الملك سيارته للقيام بجولة فيها وعلم أن قطعة مهمة من محرك السيارة كانت قد سرقت. لم يكن بالإمكان وضع قطعة بديلة عنها في السيارة؛ لأن مفاتيح المخازن كانت بحوزتي. بلغتني صرخات الغضب والصياح فسارعت بالعودة إلى الرياض وواجهت ثورة الملك التي أشرت إليها سابقاً وقررت التخلي عن مهمتي تلك. بعدها عدت إلى الخرج لأقضي بقية

عطلتي وكنت قد أوضحت بأنه لم يكن في نيتي العودة إلى هناك، لكن الأمور وعلى مدى عشرة أيام أخذت في الانفراج. هيأت لي تلك المناسبة فرصة التعرف على واحدة من أكثر مناطق المملكة إثارة. وبعد ذلك حل السلام بيني وبين الملك بسبب المساعي الطيبة التي قام بها ابنه الأكبر، وباشرت عملي وكأن شيئاً لم يحدث، لكن السائقين استمروا في سلبٍ ونهب مصادر ثروة البلاد الشحيحة. كان ذلك بمثابة الطرف المستدق من إسفين فساد الأجانب والذي كان يؤجج الفساد المتصاعد الذي كان ينخر أخلاقيات ذلك المجتمع المتشدد. كان لتدفق الثروة التي انسابت فيما بعد بغير حساب نتائج وخيمة على التوجه الديني القديم المشرف[١]. جذب ذلك الوضع المزيد والمزيد من الأجانب من الدول العربية والإسلامية ليعيشوا في ترف على حساب الثروة الذهبية المستخرجة من التراب السعودي وليمارسوا تأثيراً متنامياً على مصير البلاد.

باستثناء الأمراء وحاشيتهم، كانت نجد لا تشكل سوى شريحة غامضة في تركيبة البلاد الإدارية المعقدة. علماً بأنه لا يمكن اتهامها بأي شكل من الأشكال بأنها كانت غافلة عن محاسن وخيرات الظرف التي وجدت نفسها فيه. لم يكن أهالي نجد في حقيقة الأمر لتنقصهم المهارة في التعامل مع المشاريع التجارية، لكنهم وعلى مدى القرنين الماضيين كانوا عرضة لوطأة التقشف التي جعلتهم واعين للحاجة المتأصلة في نفوسهم من ضرورة المادة، وهذه بدورها خلفت مقاييس حازمة تتعلق بتصرفهم الاجتماعي. غالباً ما كان يأتي في أعقاب أمواج مد التعصب العاتية حالات جزر لكن على مستوى منخفض فيه الكثير من الخطورة.

---

(١) يكرر المؤلف هنا مبالغاته في وصف الأوضاع وتأثيرها على الالتزام الأخلاقي والديني وهذا النوع من المبالغة والتعميم غير دقيق.

وعلينا هنا أن نعـود إلى ثلاثينيـات القرن العـشريـن لنكشف عن ذلك النوع من الجزر الذي نجم عن تدمير الأتراك للنظام السـعودي، ولنكشف أيضاً عن الانتعاش البطيء الذي جاء به الإمام تركي الجد الأكبر للملك الحالي.

حدث في إحدى مناسبات عودة الملك من إحدى حملاته العسكرية أن استدعى كل حكام الأقاليم والمفوضين الحكوميين لحضور اجتماع عام لمناقشة وضع المملكة. اشتـملت خطبتـه في ذلك اللقاء على بعض الـعبارات الخـفيفـة التي انتقـد فيـها ممارسات المجتمعين. ولكن أمير بريدة ضايقه بالإكثار من الأسئلة والتحديات. ولم يكن أمير بريدة ذا ضـمير نقي، الأمر الذي جعل الملك يتحـدث بكل صراحة إذ قـال: «إنني أتحدث عنك وعن أمـثالك. أتحـدث عن أشـخاص نضع بهم ثقـتنا ولكنهم يستـغلون تلك الثقـة. وأذكر هنا على سبـيل المثال استغـلالهم بطلبي من المواطنين في الالتحاق بصفوف حملتي فـما كان منهم إلا أن قبضوا بعض الأموال لإعفاء القادمين للالتحاق بصفوف الحملة من الخدمة، وبالتالي فرضوا الخدمة على الفقراء الذين لم يمكنهم دفع مثل تلك الرشوة».

يمكن القـول: إن النطاق الواسع للفـساد المعـاصـر هو بالضرورة من إحـدى إفرازات تأثير الأجانب الذين يعملون في بيئة اجتـماعية معتادة تقليدياً على شظف العيش في الصحراء. تلك البيئة التي تحلم دائماً بواحـات الراحة والمتعة الشخصية التي وعدهم بها دينهم في عالم الآخرة. لا يسع الفرد منا إلا أن يرنو لحنين الأيام الماضيـة عندما كان هؤلاء الأجـانب يقفون على بوابات الجـزيرة العربية ويراقـبون بحرص النمط الديني والمدني لنظام الحكم السعودي المنتصر. تمكن هؤلاء الأجانب

بأعدادهم المتزايدة من أن يضيفوا شيئاً من خميرة مدنيتهم إلى الحماس الديني المحلي المفرط، وبالتالي تمكنوا من مسح الخطوط البارزة التي كانت تفصل الصحراء عن المناطق الزراعية. عمل التغيير الشامل الذي طرأ على روح ومثل الإسلام على إزالة المفاهيم الصارخة، كما حل الوعي السياسي والاقتصادي لطبيعة العوائق الاجتماعية بين الدول الإسلامية وبين بقية دول العالم محل الكراهية المتشددة لكل ما هو أجنبي. تأكد ذلك بالاعتراف الشامل بتفوق الجانب المادي للحضارة وبتفوق الثقافة الغربية بدلاً من تخفيف مدى حدتها. وأصبح العرب حالياً ينظرون إلى وسائل الرفاهية التي جلبتها تلك الحضارة بشيء من عدم الرضى أو أنهم يبخسونها قدرها. يخفون إحساسهم بمركب النقص لديهم -والذي يعد أمراً محتوماً- عن طريق البذخ وتبذير الثروة التي تدفقت على العالم العربي؛ وذلك إما عن طريق استغلال مواردهم الطبيعية أو صرفها على شكل هبات أجنبية، إذ كانت تصرف بسخاء من أجل إعادة التسليح أو من أجل مشاريع التطور الاقتصادي.

تجدر الإشارة هنا إلى أن المساعدات الأجنبية لم تكن مساعدات غير مشروطة بل كانت عرضة لضوابط متفق عليها سرعان ما تنتهي لتتحول على الأقل إلى بدائل مؤقتة للنظام الاستعماري القديم الذي يجد العرب أنفسهم حياله ضد ثورة متصلبة لا تزال قائمة بشكل من الأشكال في دول آسيا وإفريقية. إن العرب مدركون للمخاطر التي ينطوي عليها الشكل الجديد للتعاون الغربي في مجال بناء وتعمير مدنهم. لم يتم -ولا حتى من حيث المبدأ- قبول البدل أو التعويض البين عن مشاركة العرب في منظمة الدفاع عن الشرق الأوسط، علاوة على أن البديل عن ذلك وهو إعداد ترتيبات آنية عربية محضة كان أمراً غير وارد من دون مساعدة

أجنبية جوهرية لم يكن من الممكن الحصول عليها دون شروط مسبقة. إن التعاون العربي مع الهيئة الدولية لمكافحة الجراد كان على مدى الفترة القصيرة الماضية أقل بقليل من مجرد تعاون فاتر بالرغم من أنه ظهر مؤخراً بعض التحمس على ذلك الصعيد. والواجب إقراره هو أنه سُمح للعمل القيم الذي كانت تقوم به «بوينت فورد» ومنظمات أخرى مشابهة أن يتجاوز مرحلة إنهاء المشاريع الواردة في العقد والتي كانت قد أقرت أصلاً لعدم رغبة المملكة العربية السعودية في الإسهام في تقديم المساعدة المحلية الضرورية لتنفيذ الأعمال التي كان من المفروض أن تقوم بها تلك المنظمات. على أي حال يمكن القول إنه كان وراء مسعى الدول العربية في تلقي المساعدة الأجنبية رغبة في الحصول على الاعتمادات المالية التي خصصت لخدمة مصلحتها الخاصة، والتي سبق وأن وضعت تحت تصرفها دون أي قيود. وكان ذلك توجهاً لم ترغب الدول المانحة في المصادقة عليه تحت ظل الظروف الراهنة؛ لأن تلك الظروف لم تقدم أي ضمانات للاستخدام الأمثل لمثل تلك الأموال. ففي الأردن على سبيل المثال، كان يتم التصرف بالهبات المالية البريطانية المقدمة للحفاظ على الرابطة العربية وعلى أهداف أخرى نافعة وفق إشراف بريطاني صارم ومباشر. والجدير بالذكر أن تلك الهبات وصلت في مجملها في عام ١٩٥٤م إلى ما يقارب من عشرة ملايين جنيه إسترليني بالمقارنة مع الهبات التي قدمت قبل ثلاثين عاماً والتي بلغت ١٥٠ ألف جنيه إسترليني. حمل ذلك الوضع الحكومة البريطانية على إعادة النظر في الاتفاقية المبرمة بين البلدين مع احتمال إحداث تعديلات جوهرية على الظروف التي تستدعي مثل تلك المساعدات.

الواقع أن الأردن يعتمد في جوهر وجوده على مثل هذه المساعدات التي يحصل عليها من بريطانيا، ناهيك عن المساعدات الدولية الأخرى التي تُقدم له للمساعدة

في مشكلة اللاجئين المستعصية. لكن وضع المملكة العربية السعودية مختلف تماماً عن وضع الأردن؛ لأنها في حقيقة الأمر تملك كافة الموارد الضرورية لإدارة وتطوير البلاد، علاوة على المساعدات الفنية والمتخصصة المطلوبة لإنجاز تلك الغايات. إن باستطاعة المملكة العربية السعودية عن طريق التزامها بالبنك الدولي وبمنظمات أخرى مشابهة أن تؤمن كافة المبالغ المالية المطلوبة لإنجاز الأعمال الرئيسة مثل: بناء الطرق وسكك الحديد ومشاريع الري مستندة بذلك على رصيدها من الاعتمادات المالية. لكن لا يمكن لأي نظام اقتصادي أن يصمد في وجه البذخ والفساد دون تبني الخطوات الضرورية اللازمة لمحاربة ذلك. والمثال على تلك الخطوات: إعداد تقديرات خاصة بالميزانية الحقيقية ونشر تلك الأرقام وإقامة جهاز تدقيق حسابات مستقل ليضمن تنفيذ نوايا الحكومة المعلن عنها بذلك الخصوص. الحقيقة أنه حدث خلال عهد الحكم المنصرم أن تم في ثلاث مناسبات منفصلة اختبار نشر ميزانية عائدات الدولة ونفقاتها، لكن تلك المحاولة لم تكن سوى بادرة. وكان من الممكن أن يكون فحص وتدقيق هذه الميزانيات كافياً لتبيان أن أرقام الميزانية لم تكن تتوافق مع العمليات الحسابية الحقيقية الخاصة بالسنوات المقررة لها. علماً بأن هناك سبباً يحمل على الأمل من أن الترتيبات الجذرية التي طرأت مؤخراً على وزارة المالية -والتي كان يديرها وزير المالية الجديد المقتدر الشيخ محمد سرور الصبان- يمكن أن تسفر على المدى الطويل عن بعض التحسينات. لكن الدرب سيكون صعباً وطويلاً قبل أن يتم تذليل كافة العقبات التي تعرقل سيرها، وقبل أن تسلك الطريق لتحقق تقدماً ثابتاً ونجاحاً لهدف أعد له من قبل إدارة مالية سليمة وكفء لذلك.

لا يمكن لأحد أن يستفيد من الخطوة التالية أكثر من استفادة الملك، وأكثر من استفادة من يخلفه في الحكم، بما فيهم ولي العهد الأمير فيصل الذي كان يشغل

منصب رئيس الوزراء. ولهـذا نجد أن الأمير فيصـلاً كان مضطلعاً -وعلى وجه التحديد- بمهمة ريادة بلده وإخراجـها من ظلمات الفوضى إلى نور النظام الجديد الذي سيحـقق رفاهية وازدهار المملكة العربية السـعودية وكافة مواطنيـها، وبالتالي يكسبها استحسان وتقدير دول العالم. لكن لن تكون تلك المهمـة أقل حجماً من مهمة والدهم العظيم، الذي وحد وجـمع شمل أطراف المملكة على نحو لم يسبق لرجل مـثله أن قـام به، علماً بـأنه لم يكن تحت تصـرفه مـصـادر ثروات ماليـة ملموسة؛ لذا سيشار إلى ذلك الملك في صفحات تاريخ العالم على أنه واحد من أعظم القادة بين الرجال. إن لدى الملك وأخيه إرثاً عظيمـاً يتوجب عليهما الحفاظ عليه وتنميته. فهمـا يتميزان عن والدهما بأنهما استهلا مهمتـهما بأكثر من مجرد فيض من الثروات الماليـة والمادية بل تظافر ذلك مع ود وحسن مشاعـر كافة الدول من حولهم. أصبح الأمر متروكاً لهما ليثبتا جدارتهما حيال المسؤولية العظيمة التي ألقيت على كاهلهمـا بعد موت والدهما. إنهما على الصعـيد المعنوي، راغبان في فـعل ذلك، ويمكن أن نجـزم على ذلك، لكن التـاريخ والرجال المعـاصـرين لهم سيصدرون الحكم عليـهما بموجب قدرتهما على التعامل مع البـشر ومع المناسبات المختلفة.

حدث حصـول بعض التغييرات، كـما أنه من المؤكد أن المزيد منها سـيحصل. شملت تلك التغييرات مجالات مثل المنجزات الشخصية للزعيم السعودي الراحل، كما ظهرت قبل نهاية عهد حكمه المديد بعض العيوب والأخطاء هنا وهناك: سببت بعض الأخطاء التي يشـهد بها الجمـيع عدداً من المشاكل الملـحة التي توجَّب على الدولة التعامل مـعها، لكن كان من الممكن اسـتئصال هذه المشاكل أو إصـلاحها: يمكن لذكـاء الإنسان ولصـبره على المعـاناة أن يوقف التلف والخراب الذي تحـدثه

حشرة تعرف بخنفساء الموت، والتي تنقر الخشب وتحدث صوتاً يعد نذيراً بالموت. لكن لا يمكن لجيل من الأجيال أن يترك ليدمر المعالم والنصب التذكارية القديمة التي بناها الأولون. وخاصة ذلك الجيل الذي لا يستوعب مدى أهمية هذه النصب، كما أنه في الوقت نفسه غير قادر على تقديم أي شيء يمكن أن يقارن بتلك الإنجازات. ومع ذلك فقد شهدنا مؤخراً انهيار وإزالة الأسوار القوية التي تحيط بمدينة الرسول؛ لتفسح المجال أمام انتشار البيوت المبنية على نحو رخيص تعوزه المتانة. كما أنه تم إيقاف أحد المشاريع العظيمة التي كان الهدف منها إيجاد حل لمشكلة المرور في المناطق المجاورة للحرم المكي، والتي تجسدت في فكرة بناء طريق من ثلاثة أدوار على النمط الأمريكي. لم ينفذ ذلك المشروع لأنه تم استدراك أن الركائز الإسمنتية الضخمة الواجب بناؤها لدعم ذلك الطريق يمكن أن تجعل شبكة الصرف الصحي غير صالحة للاستعمال، كما يمكن أن تحد من جاهزيتها للخدمة الفعلية وتعطل أيضاً شبكة الكهرباء ونظام مياه الشرب الواصلة إلى المدينة.

أما على الصعيد الاجتماعي فقد شهدنا قيام بعض التشريعات التي ترتكز أصلاً على اعتبارات ودراسات غير شاملة لكافة المشاكل المطروحة. والأبرز منها على سبيل المثال كان الإلغاء السريع لكافة الضوابط المفروضة على جشع أصحاب العقارات في كبرى مدن المملكة والذي أصبح ساري المفعول ابتداءً من عام ١٣٧٤هـ الموافق لعام ١٩٥٥م. أدركت حكمة السعوديين التي تعود إلى فترة ضمهم للمدن المقدسة أن هناك حاجة لفرض قيود على تأجير العقارات خدمة للطبقات الفقيرة وللحجاج، جاء ذلك وسط تعاظم متزايد في تعداد السكان وفي ازدياد الطلب على المساكن الآخذة في التناقص. لم يحقق برنامج البناء الذي تم على مدى السنوات الخمس الماضية إلا القليل في مجال تخفيف حدة هذه الأزمة.

وكانت النتيجة أن كان هناك ميول لطرد الفقراء من مدن مختلفة؛ لأنه لم يعد باستطاعتهم دفع الأجرة الباهظة التي فرضت عليهم لقاء سكناهم في بيوت تعيسة. تم إخلاء تلك الأكواخ من ساكنيها ليتم بناء مناطق سكنية جديدة في مكانها لتعيش فيها الطبقات الاجتماعية القادرة على دفع إيجار مرتفع. وصلت أجرة البيوت في بعض الأحيان إلى ما بين ٣٠٠ و ٤٠٠ بالمئة زيادة عن المعدلات الراهنة، وبدأت الطبقات الفقيرة التي لا حول لها ولا قوة بالعويل وصر أسنانها وحرق الأرم. إن ما حدث يمكن أن يكون أكثر عقلانية لو أعيد النظر في تقييم أجرة البيوت مع الأخذ في الحسبان الوضع المالي للفقراء الذين يسكنون فيها، وذلك بدلاً من استرضاء أصحاب العقارات الجشعين عديمي الرحمة. لكن بدلاً من ذلك تقرر الإلغاء غير المشروط لكافة الضوابط المفروضة على نشاطات أصحاب العقارات.

ربما يمكن أن تعزى الإجراءات التشريعية التي قامت بها الحكومة مؤخراً إلى فقدان الصبر، وعدم التحلي به من قبل إدارة فتية، تعوزها الخبرة في مجال إدارة الأمور، وفي إنجاز ما تتخيله أنه الأمثل دون التريث لدراسة ما إذا كانت مثل هذه الأهداف قابلة للتطبيق ضمن الحدود الممكنة المتاحة لإمكانيات الدولة. كان النظام الجديد الذي صدر بموجب أوامر موجهة إلى الجهات المعنية والذي لم يصادق عليه بعد بصفته قانوناً ساري المفعول في البلاد والذي يقضي بمنع أبناء السعوديين من السفر إلى الخارج للدراسة بمثابة نظام يستدعي التساؤل في مدى جدواه، وخاصة في بلد لا يستطيع حتى الآن تأمين التسهيلات الكافية المطلوبة لتلك الغاية. كانت الغاية من ذلك النظام واضحة تماماً، وهي على وجه التحديد تجنب احتمال فساد الشاب السعودي في بيئة دنيوية محضة. لكن المعنيين في هذا الأمر لا يعيرون

انتباههم إلى حقيقة أن فساد هؤلاء الشباب يعود بالدرجة الأولى إلى خطأ ارتكبه الآباء الذين يصرون على أن يضعوا تحت تصرف ذريتهم مبالغ من المال تفوق بكثير حاجاتهم الحقيقية لتلك المبالغ، كما تفوق ما يمكن أن ينفقوه بالطرق الشرعية. كانت تلك المبالغ أكثر من المصاريف التي يحصل عليها الأولاد في بلدان أخرى سواء في داخل الوطن أو في خارجه.

في نهاية الأمر يمكن القول: إن الطالب لا يحتاج إلى سيارة من نوع كادلاك لتأخذه إلى المدرسة أو ليستخدمها في رحلات العطل المدرسية. إن مثل هذا التفاخر والتباهي يدل على يسر حال الآباء لكنه يدفع المحتالين المجردين من المبادئ الأخلاقية إلى استغلال الطفل. يمكن لثروات البلاد وبسهولة أن تؤمن الاحتياجات التعليمية لأبنائها محلياً، لكن حقيقة أن الدولة كانت لا تزال بعيدة كل البعد عن إنشاء مثل ذلك الوضع المثالي، إنه أمر دل عليه تلهف الميسورين من الآباء على إرسال أبنائهم إلى خارج البلاد لتلقي العلم ولإعدادهم للانخراط في ظروف دنيوية متصاعدة يفترض عليهم مستقبلاً العيش فيها. انطبقت تلك الاعتبارات مع مرور السنين على تعليم البنات اللاتي خصص لهن ما خصص للأولاد الصغار لكن بنصيب ضئيل من المال. لعلنا هنا نعرب عن تقديرنا بهذا الخصوص للجهود التي بذلتها وزارة المعارف وللجهود الفردية الرامية إلى تحسين النظام التعليمي القديم في البلاد، ولكن من الصعب أن ننكر أن النتائج التي تحققت حتى هذا التاريخ لم تكن على نحو يبرر إغلاق باب كان قد فتح في مرة من المرات لتلقي العلم. بل فتح خلال فترة شهدت تعصباً دينياً بالغاً، لكنه الآن تقرر أن يغلق ذلك الباب بموجب أوامر رجال يدعون أنهم مثقفون.

شكل إطلاق عنان الجشع لأصحاب البيوت، وكذلك الحد من فرص التعليم تحولاً ملحوظاً عن السياسة المدروسة التي أقرها الملك الراحل، الذي كان دائماً يقتدي بالمثل العربي القائل: «إن أعقلكم هو الشخص الذي يحجم عن فعل أي شي ما لم ينظر في العواقب المحتملة».

كان من دواعي سرور الملك الراحل أيضاً أن يترك الأمور الشائكة في الحياة لرحمة المنحى الذي تسلكه العقيدة الإسلامية التي كان ملتزماً بها على نحو لا يقبل المساومة. المثل التقليدي على ذلك هو أسلوبه في معالجة مشكلة تجار السجائر في جدة ومكة والتي حدثت إثر دخوله لمناطق الحجاز: بمعنى أنه كان يستدرج الرياح العاتية للتعاليم إلى أن يتم تعديل شكل تلك التعاليم لتتلاءم مع وضع كافة الأطراف. وكانت تنتهي الأمور بمحض الصدفة لصالح خزينة الدولة.

لم يكن هناك مجال للتسوية حول موضوع المشروبات الكحولية التي حرمها القرآن، ولا يمكن حتى مع احتمال زيادة عائدات الدولة السماح بإدراج مثل هذه المادة في تعرفة جمارك المملكة العربية السعودية. لم يكن ذلك ممكناً ما لم يتم إيجاد طريقة للالتفاف على تلك المشكلة كما حدث عندما حان الوقت لذلك. فمن ناحية سُمح فقط للأوروبيين -وكان ذلك بمثابة تنازل اتسم بسماحة النفس عن جهلهم لإرادة الله- باستيراد المشروبات الكحولية لاستخدامهم الشخصي وبموجب نظام حصة نسبية عائمة. وقد رفضت الحكومة بازدراء حقها في فرض ضريبة على مثل هذه المادة الملوثة. تجدر الإشارة إلى أنه إذا كان الهدف الرئيس من قانون حظر المسكرات هو إزعاج ومضايقة غير المسلمين من الأجانب فإنها نجحت بالفعل في إزعاجهم، لكنها تقريباً حققت غايتها المعدة للفت الأنظار بين أواسط أخرى من السكان. وامتدت يد العمل الطيب لتصل إلى عالم المخدرات، إذ صدر مرسوم

ملكي في شهر تشرين الثاني من عام ١٩٥٤م ينص على أن عقوبة تعاطي وبيع المخدرات قد تصل للسجن لسنوات طويلة مع دفع غرامات مالية ذيلت فرضياً لصالح عامة الناس. كما ألحق بهذا المرسوم فقرة خطها بيده عم الملك الذي كان يشغل منصب المستشار الرئيس للملك والتي تقضي -حسب اعتقاده- إلى ضرورة تطبيق عقوبة الإعدام بحق من يتعاطى الأفيون وليس الأنواع الأخرى من المخدرات.

في هذه الحالات كما هي الحال في حالات عديدة أخرى نجد أن أقصى ما يمكن أن يقال هو أن نوايا الحكومة بشكل عام كانت تستحق الثناء، أما أسلوب معالجة المشاكل المطروحة الذي ينم عن قدر من التفكير المشوش -وبالتحديد فيما يتعلق بالتأثيرات العلمية لمثل هذا المشروع- فكان تطبيقه أمراً طبيعياً جداً في مثل ذلك المجتمع الذي كان معلقاً في منتصف الطريق بين الموضوعية الحرفية النزيهة للحقبة الدينية وبين النظام الجديد الذي اتجه بشيء من الحرص نحو الفكر الحديث للعالم الغربي.

وعلى ضوء مثل هذه الخلفية من الممكن تفهم موضوع الحظر المفروض حالياً على قيادة النساء للسيارات وعده بمنزلة ردة فعل للاعتقاد السائد في تفوق الممارسات الاجتماعية في المجتمعات الغربية. والجدير بالذكر هنا أن النساء في مناطق الحجاز ومنذ فجر الحركة الإصلاحية كن ومازلن يتمتعن بحرية تامة لكنها توقفت منذ عهد قريب. على أي حال، يمكن أن ينظر إلى موضوع تطبيق هذا الحظر -وحتى على مناطق الحزام النفطي المقصورة حصراً على الأمريكيين- على أنه شيء غير معقول إزاء الحرية المتزايدة الممنوحة لنساء المملكة خاصة في أمور تتعلق باللباس والنشاطات الأخرى التي كانت سابقاً غير واردة على البال. لكنها

الآن أصبحت تعد فاتحة أو مقدمة لتحرير شامل محتوم ستشهده المرأة السعودية. ستصبح التجارب الجريئة التي قامت بها الرائدات من النساء الأوليات بمنزلة النموذج والقاعدة السلوكية لشقيقاتهن الصغيرات تماماً على الشكل الذي حدث في كافة أرجاء منطقة الشرق الأوسط بعد أن فتحت الحرب الكبرى الباب لدخول أنواع عديدة من الحريات. حدث في فترة العهد السعودي أن دعت سيدات بلاط القصر الملكي لابن سعود ابنتي للقيام بجولة في السيارة في المناطق الصحراوية من جدة. لكن اتضح أن رجال الحكم الحاليين الأكثر ثقافة ينفرون من أي شيء يمكن أن يؤكد على التفريق بين نساء هذا البلد ونساء بلدان أخرى.

ومن ناحية أخرى تم استيعاب وامتصاص قدر كبير من القيم والمفاهيم الشرقية والغربية في مجال الرياضة. حدث ذلك الاستيعاب بدءاً من الحرب الأخيرة، إذ نشأت الكثير من التسهيلات الخاصة برياضة التنس الأرضي وتنس الريشة وكرة السلة، علماً بأن الاستفادة من تلك التسهيلات كانت محدودة وخاصة في ملاعب العديد من قصور الأمراء المنتشرة حول مدينة الرياض، إذ تُركت رياضة الكرة والمضرب والقولف لعشاقها من الغربيين. ومما يستدعي الفضول هو أن لعبة البيسبول لم تلق رواجاً في المملكة بالرغم من وجود العديد من الأمريكيين. لكن لعبة كرة القدم التي لم تأت من بريطانيا منشأ هذه اللعبة بل أتت من الشرق الأقصى، تحولت لتصبح الرياضة الوطنية التي جذبت جماهير غفيرة لمشاهدة المباريات بين الفرق الوطنية. هذا؛ وانتشرت أيضاً ملاعب كرة القدم في مناطق عديدة من الصحراء لإتاحة الفرصة أمام رجال القوافل لمزاولة هذه الرياضة أثناء توقفهم للاستراحة. وانحصرت رياضة ركوب الخيل -وهي رياضة قديمة-، كما انحصرت رياضة الصيد بالصقور وأصبحت ممارستها مقصورة على أواسط البلاط

الملكي والأمراء وأتباعهم. جُردت هاتان اللعبتان من عناصر المتعة فيهما بسبب إدخال السيارات لمطاردة الطرائد.

إن الاستخدام المتزايد للسيارة قضى على أعداد كبيرة من قطعان الغزلان في الصحراء السعودية، كما قضى تماماً على النعام. كما استمرت أعداد حيوان المارية -وهي ضرب من بقر الوحش الإفريقي- في التناقص في مناطق صحراء الربع الخالي علاوة على أنها كانت قد انقرضت في مناطق الشمال منذ أكثر من عشر سنوات. ونظراً لأن العربي على مدى أجيال عديدة قد اعتاد على عيش الكفاف معتمداً على رحمة المواسم نجده الآن لا يشعر بوخز الضمير لفناء معالم ثرائه أو لانعدام الأمطار الخيرة التي تهطل أحياناً لخدمة مصلحته الشخصية. إن تعاظم الوعي الغريزي لتقلبات الحياة ومفاجآتها الذي تولد عند السعوديين خلال سنوات الطفرة كان قد ولد لديهم ميولاً لتحقيق نوع من الأمان حيال ما يمكن أن يجلبه المستقبل لهم. وعليه قاموا باستثمار مبالغ طائلة في مجال العقارات في دول أجنبية، كما أودعوا مبالغ مماثلة في بنوك تلك الدول. ولا داعي هنا للتأكيد على حجم الممتلكات السعودية في مصر وسوريا ولبنان، ناهيك عن أموالهم في أوروبا وأمريكا.

إن المملكة العربية السعودية التي كانت في وقت من الأوقات منكبة على نفسها وتتكل على ذاتها، والتي كانت على مدى بضع عقود من الزمن من أكثر الدول استقراراً في العالم العربي، أصبحت الآن منقادة بلا هوادة نحو دوامة من القلق والاستياء. وتلك السمة هي من أبرز سمات دول منطقة الشرق الأوسط في أيامنا هذه.

قامت مصر -بدافع القنوط- بالتخلص من حكم أسرة حاكمة مستقرة، ونصبت مكانها نظاماً جديداً نابعاً من أصول مشابهة لأصول الأسرة الحاكمة المخلوعة. أما سوريا، وبعد أن تحررت من نير الاستعمار الفرنسي فقد انتقلت من ثورة إلى ثورة في محاولة يائسة لتحقيق الاستقرار. أما العراق والأردن فكانتا غاضبتين على القيود التي من خلالها تمكنت القوى الأجنبية من جلب الاستقرار النسبي لهما حيال العواصف المنذرة بالهبوب. أما اليمن وجيرانه فكانوا يتلمسون طريقهم نحو الخلاص من الفوضى التي ورطهم التاريخ بها. بقيت جميع هذه الدول بشكل أو بآخر متورطة في نضال للتخلص من مخلفات احتكاكها مع الدول الأجنبية ومن انتهاك هذه الدول لحقوقها. لكن لم يتوجب على المملكة العربية السعودية أن تناضل ضد مثل هذه الحالات باستثناء حالات هامشية نسبياً مثل حادثتي البريمي والعقبة. أما مسببات عدم الاستقرار الراهن فيجب البحث عنها بين طيات الضغوط والعيوب الداخلية التي اشتدت إلى أن وصلت إلى نقطة الانفصام عن الضوابط التي كانت مرعية في السابق، والتي على أسسها أُنشئت الدولة وتوحدت أرجاؤها بقيادة حاكم عظيم.

جاء تدفق الثروة بشكل مفاجئ جداً وبكميات كبيرة للغاية لدرجة أنه كان من الصعب على نظام محافظ متشدد أن يحتويها. بلغ مقدار الضرر الذي خلفه تدفق تلك الثروة على اقتصاد البلاد، كما بلغ الضرر الذي جلبه تدفق الفنيين الأجانب الذي تم استقدامهم لإصلاح تلك العيوب مبلغه لدرجة أن أمر إصلاح ذلك الضرر سيستغرق سنوات طوال من العمل والصبر. الواقع ليس هناك ما يدعو إلى اليأس من أي نجاح سيتحقق أخيراً.

خضت أنا بنفسي أواسط المحاكم بسبب الحرية التي نهجتها في انتقاداتي لنظام الحكم على مدى بضع سنوات ماضية. لكنني حرصت دائماً على أن يكون هدفي هو تشجيع أعمال الإصلاح، كما كنت أتطلع في الوقت نفسه إلى استعادة الاسم الطيب للمملكة ولسمعتها الرفيعة قبل أن تدخلها مغريات الثروة والازدهار الذي لم يسبق لها أن حلُمت به. فعلت ذلك في وقت كانت فيه انتقاداتي مبنية على براهين وأدلة لا يُشك في صحتها، ونادراً ما يمكن أن يرد عليها بالبينة والحجة. إن الصديق النزيه والصريح لا يمكن أن يكون شخصية محبوبة، لكنني سبق أن ذكرت أولئك الذين انتقدوني في الأيام التي كان من الممكن لي أن أجمع بين الصدق في إبداء الرأي وبين مديح الحكومة مستنداً في ذلك على التعقل. كانت الحكومة في تلك الأيام تخضع لإشراف رجل حكيم، إنساني وشريف، إذ نجحت في حل مشاكل الدولة المتعددة الأوجه. كان في تلك الأيام المفروض على أولئك الذين كان الملك شخصياً كريماً معهم أن يفعلوا شيئاً للحفاظ على هيبة العرش ووجوده من الضعف، خاصة أنه سبق له أن حظي بإعجاب العالم. لكن لا يمكنهم أن يدعوا بأنهم قاموا بفعل ذلك. وحتى إذا توقف إعجاب العالم بهم فيرجع السبب بالدرجة الأولى إلى خطأ أولئك الذين حققوا ثروة طائلة في بلد كان معوزاً وفقيراً.

عرفت ابن سعود مدة ستة وثلاثين عاماً، وهي فترة تساوي نصف عمره، وخلال آخر عشرين عاماً من تلك الفترة كنت دائماً في رفقته أستمتع بأنس صداقته في كافة التقلبات التي طرأت على فترة مدهشة من التحولات، وقف الملك فيها وحيداً كمنارة أمل لبلاده: وقف وقفة ثابتة غير متغيرة لم يؤثر فيها شيء، وكان بسيطاً حتى النهاية في ذوقه واحتياجاته الشخصية، وكان متعبداً ولا يعلو مخافته لله أي شك، وكان كريماً إلى حد بعيد. والآن وبعد أن رحل عنا

يمكن القول: إن الجزيرة العربية لن تشهد مثل هذا السعودي العظيم، كما أن اسمه سيبقى خالداً. كانت ردة فعلي للخبر المفاجئ المتعلق بوفاته، -علماً بأنه كان شيئاً متوقعاً- مثل سفينة قُطعت الحبال التي تشدها إلى مرساتها بالقرب من شاطئ خطر، أو ربما كانت مثل ردة فعل عبد مضطرب حصل على حريته. أصبحت حراً بعد طول انتظار: حراً حيال مسؤولية تحملت أعباءها بإرادتي على مدى سنوات عدة قضيتها في خدمة رجل لم أعرف من هو أعظم منه، كما قضيتها في خدمة قضية كرست لها نفسي. وفي السنوات الأخيرة عندما كبر الملك وأعياه المرض، بدأ ذلك العبء يضايقني فطرحته عن كاهلي عندما غادرت الطائف في السادس والعشرين من شهر أكتوبر (تشرين أول) من عام ١٩٥٣م. ولا أدري إذا كنت قد طرحت ذلك العبء دون وعي أو بشبه وعي مني. ولا مجال للشك في أنه من الممكن أن أحمل ذلك العبء مجدداً، لكن وفق شروط هي غير مقبولة كلية لأولئك الأشخاص الذين يمكن أن أخدمهم طوعاً من أجل خاطر والدهم.

أدارت المملكة ظهرها لماضٍ مجيد طويل لتأخذ مكانة متواضعة في العالم الحاضر الذي لن تسهم من أجل تطوره في أي شيء أصيل، بل استعارت منه المفاهيم المثالية، والمعايير التي تتناقض في فحواها مع كل ما ناضلت المملكة من أجله في الأزمنة الغابرة، وعلى وجه التحديد منذ ولادة الإسلام وانبعاثته العظيمة في الفترة السعودية.

وفي محاولة هنا للكف عن هذا الاستطراد أجد نفسي استأنف الدور القديم الذي أداه فوكس كالامانتيس في البراري التي ستكون بمثابة معتزل لتأمل النساك في أهوال وشرور الإنسان: ففي قدسية الحرم المكي يخشع العابد في تفرده وسط حشود المواطنين والحجاج الذين يطوفون حول الكعبة. هناك تجد من هو منكب

على أداء هذه المناسك الدينيـة، ومن هو يسعى لكسب الثـروة. إذا كان هدفي في الماضي شجب نشاطات النظام الاستعمـاري القديم من أجل تحرير العرب وشعوب مضطهدة أخـرى، فإن هدفي من الآن فصاعداً هو حث الشـعوب التي تم تحريرها من عبودية الاسـتعمار على السعي وراء الحكمة وضبط النفس في اسـتعمال الثروة الطيبة التي هبطت عليـهم؛ وذلك ليصبحوا جديرين بالثقـة ومحترمين في أواسط الأسرة الدولية التي اكتسبوا حق الدخول إليها. لن يقل نكران فضل المهمة الجديدة عن نكران فضل المهمة القديمة، كما أن الوقت قصير ولا يسمح بالنواح والتشكي، لكن القفار القديمـة نفسها ستوحي بذلك النواح طالما أنها تـستمر في إيواء الواعظ الديني!